

تفسير قوله: وَقَطَعْنَاَهُمْ اثْنَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّا

{ وَقَطَعْنَاَهُمْ اثْنَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْيَمْنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } . { وَقَطَعْنَاَهُمْ اثْنَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّا } الضمير في { وَقَطَعْنَاَهُمْ } عائد إلى قوم موسى. وقوله: { وَقَطَعْنَاَهُمْ } فيه وجهان معروفان من التفسير، وبحسبهما يكون القولان في إعراب قوله: { اثْنَيْ عَشْرَةَ } قال بعض العلماء: { وَقَطَعْنَاَهُمْ } ؛ أي صيرناهم قطعاً، وعلى هذا فقطعنا تطلب مفعولين لتضمينها معنى صيرنا؛ فمفعولها الأول هو الضمير { وَقَطَعْنَاَهُمْ } ومفعولها الثاني: { اثْنَيْ عَشْرَةَ } أي صيرناهم { اثْنَيْ عَشْرَةَ } فرقة. وقال بعض العلماء: { وَقَطَعْنَاَهُمْ } ؛ معناه فرقناهم وميزنا بعضهم عن بعض لأنهم أبناء اثني عشر رجلاً، وكل رجل صار من نسله قبيلة. والسبط في أولاد إسحاق بمعنى القبائل في أولاد إسماعيل؛ فيعقوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كان له اثنا عشر ابناً، كل ابن منهم ولد له نسل؛ فصار كل ابن منهم قبيلة. والقبائل عندهم تسمى أسباطاً؛ فالأسباط في ذرية إسحاق بمعنى القبائل في ذرية إسماعيل. والمفسرون يذكرون أسماء هؤلاء الأسباط الذين تفرعت منهم القبائل، ذكرها إنما هو عن طريق الإسرائيليات؛ ولذا اختلفوا فيها. منهم من يقول هم روبييل وشمعون ويهوذا وربالون وبشجر ودان و.. ، وحات وعيشر ويوسف وشقيقه بنيامين. ومنهم من يذكر غير ذلك؛ ولا طريق صحيحة تثبت ذلك، إلا أن الأظهر أن هؤلاء الاثني عشرة، أن كل واحدة منهم من سبط من أولاد يعقوب؛ كما تقدم في قوله: { وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيبًا } ؛ لأن كل سبط من هذه الأسباط بعث الله موسى فيه نبياً سيداً يتفقد شئونه وأحواله؛ لتكون تلك الرجال الاثني عشر يطلعون موسى على سرائر قومهم، فيهون عليه الإصلاح من شئونهم. ولذا قال هنا: { وَقَطَعْنَاَهُمْ اثْنَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا } فعلى أن قطعنا بمعنى صيرنا " فائنتي عشرة "؛ هو المفعول الثاني، وعلى أن قطعنا بمعنى ميزنا بعضهم عن بعض وفرقنا بعضهم عن بعض؛ لنجعل على كل فرقة منهم نبياً فقوله: { اثْنَيْ عَشْرَةَ } حال، هي حال جامدة مؤولة؛ أي ميزناهم وفرقناهم في حال كونهم بالغين هذا العدد الذي هو اثنتا عشرة. واختلف العلماء في مميز { اثْنَيْ عَشْرَةَ } فظاهر القرآن أن مميزه { أَسْبَاطًا } ولكن المعروف في لغة العرب أن العدد كله من الثلاثة إلى العشرة يميز بالجمع مضافاً إليه العدد، أما غيره من الأعداد فإنه يميز بالمفرد. فالتمييز المطابق للعربية المعروفة لو قيل "قطعناهم اثني عشرة سبطاً". وذهب بعض العلماء في الجواب عن هذا إلى أن الأسباط هنا جمع سبط مضمن معنى القبيلة، وأن الأسباط القبيلة تكون فيها أسباط كثيرة؛ وعليه فالمعنى قطعناهم اثني عشرة قبيلة فالأسباط بمعنى القبيلة. وهذا مردود لما ذكرنا من أن الأسباط في ذرية إسحاق بمعنى القبائل في ذرية إسماعيل. والذي اختاره غير واحد من المحققين أن المميز محذوف دل المقام عليه "وقطعناهم اثني عشر فرقة" وقوله: { أَسْبَاطًا } بدل من { اثْنَيْ عَشْرَةَ } وهما بدل بعد بدل على الصواب. ولا مانع من إتيان البدل بعد البدل كما هو معروف في علم العربية. وقد وجد في كلام العرب وهذا معنى قوله: { وَقَطَعْنَاَهُمْ اثْنَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّا } . كل سبط منهم أمة أي خلق وقبيلة كثيرة كثيفة العدد. { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ } ذكر جل وعلا هنا بعض ما أنعم الله به على الإسرائيليين في التيه. يذكر الموجودين منهم زمن نبينا نعمه عليهم، ويذكرهم أيضاً كثرة ما هم فيه من الخلاف، وعدم طاعة الله ورسوله. لأن سبب هذا التيه أن الله لما أنجى موسى وقومه من فرعون وعلق لهم البحر، وأمرهم بقتال الجبارين -أصابهم الجبن الذي قدمنا شرحه في سورة المائدة، وقالوا لنبيهم موسى { لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } . فأصابهم الجبن والخوف فقال موسى { رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة { قَالَ فَإِنَّهَا مُخِزَّةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ } يصبحون حيث أمسوا، فإذا مشوا النهار كله أصبحوا من حيث كانوا أمس. الله ضرب عليهم هذا التيه. وأصحاب الأخبار والتاريخ مطبقون على أن موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام توفيا في التيه. ثم صار الخليفة بعد موسى يوشع بن نون بن إفرايم بن يوسف عليهم السلام. هو الذي فتح الله على يديه كما سيأتي هنا، وتقدم في سورة البقرة.